اللاز

رواية



ه إيه الله يرحمك يا السبع.

سيد الرجال.

شر رصاصات، ومات واقفاً.

وم حضر أجله كان المرحوم

الله يرحمك يا قدور ولدي ويوسع عليك.

لأ صوت هادر من الخارج، القاعة :

ما يبقى في الوادي غير حجاره.

اح الشيخ الربيعي يتمتم :

ية، كما خلفها الرومان، تتأمل الجبال، في كآبة ما تزال، و الظلال
حنت الشمس إجهاداً ووهنا، و المارة والتجار الواقفون أمام د
ن عقارب ساعاتهم بين الفينة والأخرى، والحركة تقل شيئاً فشيئ

الملعب، شاهرا خنجره في وجوه الصغار حتى ينزلوا عند إرادته،
ة بـ (دورو) لكل لاعب، وتارة يشتط، فيطلب عشرة..
كن يجدي معه، لا تدخل الآباء، ولا تدخل (الشامبيط)، بل ال

ا يا اللاز يا ابني، لماذا.. ألست أمك؟ تسعة أشهر وأنا أعاني...
ل اقترحت أنا ذاك، يا عاهرة..
ن يتجمهر حولها أطفال وفضوليو القرية، ويرى الشامبيط

هرت وضعيتها الاقتصادية، وصارت تشتري السكر بالكيلو،
والزيت باللتر، بل إنها من حين لآخر، تشتري علبة حلوى ال
الجوز أو التمر، بينما كان الدخان لا ينبعث من كوخها إلا م

ذه حرب. وهذا آخر قرن.

الربيعي في نفسه، بينما تساءل قدور، وهو ينحني على صندوق

- ماذا؟ ماذا؟.. إلى أين أنت ذاهب؟..

- ستطلع فيما بعد...

* * *

ع قدور، يتقاذف في الشارع، نحو المنزل، وأمواج صاخبة من
في ذهنه.
ت الرابعة، ما يزال هناك بعض متسع.. لكن ينبغي أن أخرج

الاز.. لقد اغتر المسكين، يقيناً أنه خدع.. انخدع.. هذا هو أسا
من البدء.. الخدع، و الانخداع.
فت قدماه عند عتبة المنزل.. الباب مغلق كالعادة، وتوانى في طرق

ه.. زينة بنت «الشايب السبتي» جارهم وصديقهم، فتحت ا

جيرة.

في نهم وأسى، ثم أفسح المجال لبسمة تنبت على شفتيه وهمس

ه، من يوم دخلها كما يقول للناس، ومن يوم اكتشف فيها ز

في قرارة نفسه..

ه الفتاة، الرابعة، الممتلئة، البيضاء، العذبة، التي استولت ع

عينها يا ابني مارك.

ذا تقولين يا أمي؟

تسلم عليك كثيراً. وغداً آتية، لإعانتي على فتل الكسكسى..

امه منقدة له.. إنها تتناول، الموضوع، من جانبه الجدي..

ر بضرورة التظاهر بالاحتجاج :

اذا.. من يذكر زينة نقيم له العرس.

كن الثورة آنئذ، مندلعة، ولا حتى تخطر ببـــال أمثال قدور، كا
يكون بالمرآة، قبل أن تسقط وتتهشم، تبدو صافية لامعة، ولو ك
الخدوش، والوجود الاستعماري، لا يستشعره أحد إلا كما ي

وزد، وزد.. «معيشة» كلاب والله.

، أن حمو يبالغ بعض الشيء حين يقول أربعة عشر فماً مفتوح

سوى عشرة أفواه.. أخوه زيدان، وزوجته، وسبعة أطفال، وأمه..

المفروض أن تنتظرني في السقيفة، في الموعد، لنلج بعد ذلك بيت
بب ما، تأخرت كثيراً، ربما أختاها لم تناما بعد، ولربما غلبها النعاس
ينا..

حبزة مرة، والعياذ بالله.

أطرق يفكر في رعب، في قضية لم يشأ أن يصارح بها قدور...

رخة أنجبت منه ولداً جميلاً، خنقت أنفاسه، وأرسلته له مع داي

ك، كذلك.

نغرق قدور في سرد أسماء كل الذين استعان بهم، وكل ما بذل

أخيراً، كتاب الشيخ السيوطي، الرحمة في الطب والحكمة.

..

تهتم... غمض عينيك واغطس... أخوك شوت نحن قبله...

ساعتين، انفرج ثانية، فنهض قدور، حسب تعليمات صديقه.

ب...

ور.

مو...!

حمو، ما يزال فى انتظاره... عادة جميع الناس... لا يعقل أبداً ا

ه، وتركه حراً مسئولا رجلاً، يتمتع بحقوقه كاملة، مثلهما...
منذ أمد طويل، منذ سنتين، أنني أسعى وراء زينة، وتعلم أنني قد
لها ذات ليلة، وأسهر عندها حتى الفجر. لكنها مع ذلك تظل

قدور، بعد أن طرق الباب، أن يجد الضابط أمامه، مصوباً نحوه ا
ساخرة تلوث شفتيه، بينما أمه مغلولة، والدماء تنزف منها... يقو
عد أن يركلني ألف ركلة... وهناك... آه.

:

خ يا عمي احمزي. اللاز ألقوا القبض عليه. لا بد أن أهرب.

؟ ماذا ؟.

في أذن احمزي ببعض الكلمات.

احمزي سي الفرحي، بإصدار أوامر صارمة:

أخذه معك. يبيت عندك، أوصله للجماعة. المحافظة على الس

؟

ن من صفوف العسكر، بعد أن لبث أسبوعاً، فر وعاد إلى القر

ان، كانوا يعرفون جيداً مصير اللاز... ويعرفون كذلك أنك مست

... كل رصاصة وبعد أن ألقى على الكرسي الانتظار، أضاف ب...

...قاش والتساؤل :

...سارة واحدة ولا خسارة الآلاف... الثورة كل الناس.

...ن قدور استجمع كل قواه وألقى سؤالاً، توهم أن الجواب عنه

ت...
تشابكت المفاهيم في ذهنه... ولم يعد يفرق بين الخواطر، وبين الـ
كل شيء... نسي حاضره برمته، نسي سي الفرحي والبغلة...
طويل أم قصير؟ وهل يمكن أن يصلا أو يلقي عليهما الن

وان اقتربوا، البارحة ذبحوا خمسة إخوة، وحطموا مدرسة وجسر
شى فقط أن يعيدوا لنا (ثمانية ماي) آخر.(*)
دور على حمو الذي لم يعد يحدثه، كلما تقابلا، إلا عن

ة فوقه... رشته بحبل من الرصاص... حبل احمر كنت اراه
واقفاً لحظات، ولما حاول أن يتقدم انشطر إلى اثنين...
الداعي لذلك... إخراج الفرنسيين... هاه... لقد وجدهم، أمام

تعلم العربية والرومية، بما فيها الإنجليزية والألمانية والروسية.

ح الحاكم من عندنا... الشامبيط والخوجة، والقائد، والشرطي منا

ر فاهمين، نظيفين، جميلين، محترمين كالفرنسيس.

وحدنا نطمح لكل هذا... هناك أيضاً المصريون، والتونسيون، و

ا، والفرنسيون كانوا عندهم بالصفة التي هم بها عندنا... مع

ع ذلك انهزموا.

الناس كلهم في الهند الصينية بمثل ما يقوله حمو. واستطاع

راس ابن عمي، فات الحال، إما...وإما... الشامي شامي... وا
ي. الذبح من جهة... والرصاص من جهة.
خيل لقدور أنه غائص في الأعماق... أعماق الأعماق.

د الحديث يدور إلا عن المعارك، والذبح، والحرق، وتخريب الا

الحديدية، والجسور.

حماس حمو، ولاحظ قدور أنه لم يعد يتصل به هو فقط. بل

ليس سوى التمرد على الأسياد، على كل شيء، على هؤلاء
ـ كما يقول أخوه زيدان ـ لم يفهموا، ولا يريدون أن يفهموا
هو مصلحتهم... مصلحتهم التي تتعارض مع مصالح جميع الناس

الحال، بل غني. دكانكم يعمر شيئا فشيئا، وأرضكم صرتم تغ
بعد مدة تشترون شاحنة، وبعد مدة أخرى تشترون جرارا. وتك
حتى لا يبقى في إمكانكم تمييز من تحتكم...

مل العمل، وتعرف على كل المنخرطين، على أغلب سكان القري
يظهر إلا قليلاً... كثير الأسفار، إلى حيث لا يدري أحد، بينما تن
يه في العمل بالفرن، وهو في الباقي، حتى بقي وحده في القرية،

نود الجزائريين من الثكنة :

لعة جاهزة، غداً على الساعة الخامسة، ثلاثة. اقرأ حسب حم

لنا.

سي الفرحي حبل الصمت الذي امتد كامل الطريق، فانتفض
ه في الظلمة، ثم تحسس بقدميه بطن البغلة، وتلمس بيديه كتفي
وتذكر موقعه وهدفه، بعد أن هم أن يسأله:

رض أسماء كثيرة ووجوها عديدة ممن جندهم بنفسه. و تحقق

اطه، على يد حمو.

الكثيرين، وتشخصوا له، واحداً واحداً.

بل حتى أصبح في إمكان المرء، أن ينظر بواسطتهـــا إلى الخل
لتفت.
نامراته في القطار، فالحديث عنها لا ينتهي، لأنها تتجدد يومياً،

يدان. سي زيدان، انت؟

دق فيه جيداً... لم يتغير سوى لباسه... هو هو، بطوله الفارع...

لا يلامس السقف... هو هو بوجهه الأسمر المائل إلى الزرقة

ض بالصوب، لا يفكر في إنفاقه إلا في الأعراس أو الخصومات.
زيدان، ثم شعر بالإشفاق على قدور، فأضاف في نفسه، الثور
وما دامت عميقة، فإن التحول يحدث بسرعة. يجب أن يتحول

ستغرق إغفاءة واستسلم لمخيلته.

***

ه صافيا، عدا بعض سحابات تسوي يمنة ويسرة، متخذة
ة، مرة تبدو في شكل أسد، ومرة في شكل شيخ معمم
ساء، لحيته البيضاء تتدلى. ومرة في شكل ديك مذبوح...

لك تعلم أنني فقيرة عاطل.
ذلك أعرف انك غير محتاج للدراهم في الوقت الراهن :

تقول يا اللاز.

أن أتخلص من اللاز ولد مريانة.

ا إذن

برر صمت كل السنين الطوال؟ هل يفهم؟ هل يعذرني؟ قبل أن
الذي قد يكون الأخير، لا بد أن أعلمه. نعم لا بد من ذلك. لقد
اعتباره. نعم حان. رغم أنه فعله قبل اليوم، يوم قر قتل القبطان.

ى عليه، وراح يقبله في كامل وجهه. وفجأة تخلص من ذراعيه
ما الدموع تنهمر من عينيه... اللاز عنده أب، ها ها... اللاز،
كانت تسمى مريم... ها ها...

مدة. ما يبقى الوادي غير حجارة... رددها ثلاث مرات...
قبلني فسأنزل بالمحطة القادمة.
مني أولاً كيف أنت أحمر؟
تلتقي مرة أخرى وتكون قد نضجت... إذ ذاك ستفهم، سأُفهمك

يدان، واستوى في جلسته، مبتعداً عن الجدار.
الجماعة برهة، ثم تلمّس جيوبه عدة مرات... لا أستطيع نس
وقت غير مناسب. منذ خمس وعشرين سنة وأنا أدخن. ثم رفع

سم نعم، يجب أن لا أرجع إلى القرية، أريد أن ألتحق بالجبل معك
ن جندياً... ببندقيتي، أقتل العسكر، وأقوم بعمليات، وأدافع عن
ى كل أمل في القرية، ويجب أن لا أعود إليها.

ـه بشوق وحرارة :

ت أسال عنك.

ل عليك الخير. كيف الحال؟

ـسه التعليمات التي يجب أن ينفذها غداً.

* * *

في الضابط على المقعد، خلف مكتبه الحديدي، ثم أمر رئيس
سلسلة من ساعدي اللاز، وتقديم مقعد له، ومغادرة المكتب. و
لحظات متنهداً كما لو أنه يفكر في أمر مؤسف، ركز النظر في عيني
ثم قال بلهجة متوددة لينة :

تزال ممتزجةٍ بدموع باردة، ويداه لا تزالان على الوضع الذي كا

ة... من أين عرف «المأبون» ما أقوم به... قد تكون خدعة. أك

قدور... هل فر بعد؟ يقيناً أنه فهمني...

... يتحدث عن الصداقة والحب، كما لو أنه عاهرة وقحة...

اهد، مجاهد. مسبل، مناضل. فلاق، خدعتك أيها المأبون القذر
ه مكشراً عن أسنانه السود... نهض بعطوش بسرعة وأخرج
وراح ينظر إلى الضابط منتظراً الأمر...

وضعهما.

.وه.

نظر اللاز أن تخرجه الدورية عنوة، بل وبدون أي تفكير مسبق، ا

يستغرق في التفكير، لولا تسارع الجلدات العنيفة بالسياط ا
يغيرون مواقع سياطهم، وحاول أن يتململ، فشعر بالمسامير ت
.

أي...

ن تعمل؟ هل تتكلم أم نواصل؟

صلوا ... لن أتكلم مهما كان الأمر... إذا لم أتحرك فلن تؤ

الملازم إلى منضدة وتناول قلما وورقة، وراح ينتظر الاعتراف، وهو
ن متأكداً من أن اللاز لن يصبر طويلاً، وأنه كلف نفسه مشقة ج
مكانه أن يتفاداها... لو كنت مكانه لما ترددت في الاعتراف بعد

لم. مع من تعمل؟

اللاز عينيه، في بطء من يستفيق من إغماءة، وراح يتأمله من

في احتقار واشمئزاز، ثم تمتم :

يريدون...

أن الأحمر اللعين هو الذي يخطط لهم... تدرب في صفوفنا وتث

وسبقتنا إليه موسكو...

وأنا أعيش وسط هذه القاعة، كل ألوان العذاب... كنت أعيش

ب.

أنذرت قدور، وهذا ما يطمئنني ليتني لم أنذره... لا، لقد

ممن سلامتك إن اعترفت.

ن أبدا؟

ة رائعة... رائعة جداً... الشامبيط. الخنزير.

ما عذبني بسوطه الخائن. أكبر خائن على الاطلاق. هو

ناً، ستشرب كأس خمر.
على زر في الجدار. انفتح الباب عن الملازم يؤدي التحية.
سر من مكتبي كأس خمر.

امة أمام هذا اللقيط التعيس، فبادره بانفعال :

جوز لك أن تعلمني ما يجب فعله؟ أنا أحضرتك إلى هنا. ما وراءك

للاز أن يثب ويمسك بخناقه صارخاً :

فهمت؟

وامركم سيدي الضابط.

ور المسكين، أشفقَ عليّ من العذاب، فكلف مَن يخبر الشامبيط

. أريد أيضا شرائح أو أي شيء من الكوامخ، فإنني جائع.
كن كيف؟ إنه لم يوصني سوى بالشراب. أما الأكل فلا...
ل يشرب بدون أكل أيها المغفل؟ أضف إذن أنه لم يوصك ب
ب من القارورة مباشرة.

ى الشامبيط الخبيث... لماذا أحجمت عن اتهامه؟ لقد جرت
كما أتوقع، وفي إمكاني أن أتهمه لدى أول استنطاق، وسأصر علي
ة بيني وبين قدور، وأنه هو الذي مكّن له فرصة الفرار، ثم ج

اعة الجديدة... كيف يكون مصيرها؟ الإخوان الذين اتفقت معه
اذا سيفعلون؟ هل يعدلون ويستسلمون؟ أم يتصل بهم غيري؟
لك أنهم ينتظرون أن أعترف بهم فيعتقلون... آه، ليتني لم أت

حقدي وحقد الأشقياء البؤساء... وتستسلم لأحضان زيدان،
الأخيرة... وهو يناغيك : وداعاً بني العزيز، لقد أديت رس
ك إخوانك الصغار وأنا وعمك حمو وكل التعساء الأشقياء.

حمو من فرن الحمام... ومع ذلك يشتري لي في كل عيد ثوبا ور

المسكين... الأحمر.

لماذا هو أحمر؟ ألأنه يشتغل بالسياسة ويحقد على الأغنياء؟

أحمر... بغير علم ومعرفة بالسياسة فإنني أبغض الأغنياء

دن... فرنسا أجمل من ايرلندا... دن دن... أشرب الخمر في

. سأشرب معك أيضاً يا اللاز.

دن... رغم أنني مستعد لجلدك في كل وقت... دن دن... لأنك

زيدان وحدته على بعد بضع مئات أمتار من كوخ سي ال
ها إلى أربع فرق صغيرة، ثلاث تتكوّن كل واحدة منها من

»، فستشهد ولا شك، المنطقةُ، نهار الغد، تفتيشاً واسعاً بعد هذ

ة.

متطى بغلة، ووثب حمو خلفه، ولحقه بقية أفراد الفرقة. وقال في نف

ن تعرف أنه ابن أخيك وأنت عمه؟

ا، ماذا... اللاز ابن من؟

ي، ابني يا حمو يا ابن أُمي...

أن أعاد زيدان باختصار مشوش قصة اغتيال القائد والهروب إلى ا

لم يجد ما يعلق به، ورفع عينيه إلى السماء، يحدق في النجوم المت
البعيد.
شيء حقيقي ولامع ومؤثر، لا يوجد إلا في البعد، البعد البعيد

بيادي، فما كان مني إلا أن بادلته السكوت... وبعد لحظات
تقريراً إلى القيادة في الخارج وينتظر موقفهم... وضعي خاص، ول
عي آخر، لقضى عليّ دون استشارة أحد... أكد على ذلك مراراً
، ولست أدري ما إذا أثرت فيه بتأكيدي أن العمل العاجل أو

ن كلهم من الفقراء والمساكين، وكل ليلة نذبح عدداً كبيراً من
سدنا، ضد الثورة... لا يكتفون بمنع الإعانة عنا، بل يشون بنا للعدو

، منذ خلقت وأنا أعيشه.

ر بسيط على كل حال، وسيردّ القادة من الخارج بأنه لا فرق بي
أبيض أم أزرق، ما ليس بخائن أسود، وقد يكون القادة أيضاً

يسقط مرات ومرات، ثم ينهض على قدميه، يمشي على الجدران
يسقط وينهض، وُيجرح من جبهته ويسيل الدم من أنفه، وتتورم
تتد عضلاته... إذ ذاك يثب ويجري. وسيظل طيلة سنوات طفلاً

شتد عوده جمعه واختزنه في أكياس، لأنه في حاجة إلى الأرض
زهو، لأنه يحب البراعم والزهور، لأنه في حاجة إلى الأرض
الأرض المثمرة... لأنه اكتسب المنطق.

ت الصورة لزيدان، وحاول أن يحتفظ بها في ذهنه، إلا أنه سرعان
، وقال في نفسه: صورة رائعة، صورة ذهنية، تحتاج إلى تأمل أشياء
الواحد، وتحتاج إلى العيش من الداخل لإدراك مدى عمقها...

ـم يحاولون محاصرتنا.
ـعمل؟ هل نتراجع؟
... اس...

بصوت قوي صارم :

.

ب صوته قرقرة حادة من بندقيته الرشاشة، وبعد لحظة انتظار لرد

لاز بسرعة من ارتداء ثياب السارجان، وتردد قليلا قبل ان يخر
ارورة الكحول، ثم وثب نحوها واختطفها، وبسرعة ورشاقة قذف
واله وتبع الجماعة التي انتظمت في صف كما لو أنها إحدى د

بدأت الدورية تقترب من الباب راحت خطوات أفرادها تتثاقل
أن كل واحد يحاول أن يبدو بقدر الإمكان في حالة طبيعية أمام
ارهم نصف التفاتة، ثم ولّى يتابع حركة الحشرات المتداخلة حول

لم بدون ضجيج وسط الدورية، وإلا أسقطتك...
أحد الجنود إلى مكان الحارس، وخرج آخر، ليتولى القيادة، بينما
مام الكابران رمضان الذي أعاد إليه البندقية بعد أن انتزع منها ا

بيل، وتأهبوا للركوب... القضية تخصّني وحدي الآن.
ه أحدهم موسى صغيرة، فألقى نظرة متفحّصة على السيارات ا
اجر أغنام في سوق، ثم تقدّم نحو إحداها... سيارة الحاج... -

فوق المسامير يتلقيلسعات السياط المبتلة وينتظر الصدمات ال
الأظافر، لم يكن يعي حق الوعي، جدّية الموقف.
ت الأمور تمرُّ في يسر وسهولة... أُلقي عليه القبض... هذا كل ما

.... استدار المحرك، ثم توقف... أعاد الضغط ثانية، زأر المحرك
لامه التام، وخضوعه المطلق لكل رغبة يتلقاها... شدَّ اللاز المق
يديره إلى اليسار، ثم عالج حوَّال السرعة رافعاً رجله اليسر

قلب اللاز وهو يخاتل نفسه بسؤال : هل أراه مرة أخرى؟ هل
صول إلى هناك؟

ام أو يعدن منه...

يجدون اللاز في طريقهم، في كل مكان وكنت أجدهم أيضاً

ا زالت ثلاث دقائق.

بصوت خافت لزملائه، الذين كانوا بدورهم في حالة اضطر

ا فتئوا يتفقدون أسلحتهم، ويتبادلون النظرات مع الكابران رمض

الاستعدادات داخل الثكنة بعد أن ضُبطت بدقة كل تفاصيل
والتفتيش عن قدور... وطفقت الدبابات تتحرك الواحدة تلو الأخ
إعتداد، وانطلقت العربات ملأى بالعسكر. ولما خلت الثكنة

في نفسه. ثم رفع عقيرته:

- سارجان ستيفان، سارجان.

ع بعطوش، بالأمر الذي يحمله من القبطان، والذي لابد من

بعنف على الباب... ومرة أخرى لم يستقبل طرقاته غير ال

لى جبهته ثم على قفاه، وشعر بالتدهور حين انفتح الباب، وفوجـ
ان ستيفان، عارية، مضرجة بالدماء... وظلّ جامداً، بينمـ
ط، وهو ينزع في وقار سترته ليغطي بها الجثة...

ن يديه، أو على الأقل يغمض عينيه...

ت أن أُمنح صباح الغد رتبة «كابورال» جزاء على الخدمة العظمى

. ولكن ها أنني أُذَلّ في أعزّ وأسعد لحظات حياتي... آه يا بعط

يمثل في ...

هما تغيّر اللون المنتخَب. المعنى المجازي للاز هو البطل، في غير لغ

م، فإنه اللقيط، أو كل أعور يُتشاءم منه.

ها القذر، انك لا تمثل شيئاً، انك لا تمثل غير هذا الشعب اللقي

ل اليوم...

الضابط بنظرة باهتة، وأمره :

ني إلى بيت قدور، وأحضر لي هناك أُم اللاز.

نة، فلفظ آخر إرشاد :

خر منزل على اليمين، في المنعرج.

ب الجميع، وتقدم الضابط نحو الباب، بعد أن هدر في جهاز اللاس

بعطوس والسامبيط إلى جانب الضابط.

ن مسكن الربيعي يتكوّن من حوش مفروش بالإسمنت ومـ
ن متحاذية، مستقلة الأبواب، ومن كنيف في أقصى يمين الداخ
نوم الربيعي. أما المطبخ فإنه في اليسار أمام بيت المؤونة

يتفحّص وجهي الربيعي وحيزية. وكأنما يقرأ فيهما حروفاً مطموس
في سن الأربعين ما تزال تحتفظ بشبابها، وجهها مستدير جميل
سمات التي تشوهه، الدموع تنهمر من عينيها الكبيرتين غزيرة، ل

ض بعطوش والربيعي عمه، والشامبيط.

حالتك يا بعطوش.

ة آلية، أوقف اللاز السيارة أمام أسلاك مركز الرقابة الشائكة، و
مًا يهرب من الواقع المرعب الذي يتجسم أمامه. قابلته الساعة، ف
تزال دقيقتان... ثم أعاد تساؤل الكابران رمضان الساخر : وه

داعي سأصعد إليه بنفسي.

التفت إلى زملائه، وخاطبهم وهو يغمز بعينه اليمنى :

يا انزلوا. طابت لكم الركبة!

هل أنزل أنا أيضاً؟

ر الكابران رمضان الأمر، وأعقبه بقذف قنبلة يدوية صحبها
طلقة من رشاش رئيس الحراس، وأصوات استغاثة، وأنين، بينما
ى يردّد أمر الضابط بجمع السكان في الملعب.

ل صرخة حادَّة... كانت الثعابين، مئات الثعابين، ملايين ال

، تفغر فاها في انتظاره.

لاز، ما بك؟

وق وكأنه في السينما.

الجميع، ولم يجب اللاز، تمايل إلى اليمين يعيد السيارة إلى

صيحات العجلات وكأنها زغرودة.

..

ا لحظات، لا يدرون بأي حق يأتيهم الأمر بالوقوف... فكر أحد
لأنا الطريق ورجعنا إلى القرية. وخطر لآخر أن الضابط كمن له
نفسه، بأن الأمر صادر بالعربية...

الفجر اقتربت الفرقة الثانية من مكان الموعد، بعد أن قطعت
كلمتراً في ظرف ساعات قلائل، سالكة الشعاب والوهاد وا
باستمرار من قمة لأخرى.

سارعتَ إلى هذه الصخرة دون ان اشعر... يقين، إن كل واحد م
بيراً... الطائرات المقنبلة، المدافع الرامية، الرشاشات اللاهثة، ا
للاستيلاء على كل شبر في أرض المعركة... هذه الليلة الم

بوانات، ليس لها سوى عينين، هي أيضاً تسير إلى الخلف، ولكن
لأمام.
رينقوم» الذي يحتفظ بحرارته مدة أطول، أفضل من ذاك الذي

تستروا، فإنني، نازل بالمحطة القادمة. ولن أنزل، سأواصل وأواصل،
ه... لاشك أن الله مسافر أبدي، يبيع الحياة والموت... استغف
حال إنه يرى الجميع، ولا يراه أحد... آه لم أُفكر في كل هذ

ـه، هل سيظل يمضغ. وضعت على جثته منشوراً، وانصرفنا إلى الـ
أريد أن أنام... وتململ، وتفقد رشاشه، وسوى قبعته.
يردد كلما سألته :

ثق مما تقول؟

ا؟

ن الحركة أيضاً يأتوننا في زيكم، لكن مع مطلع النهار دائماً

عروج لم تقل؟

طروا.

ا تريد؟

تسامحونني اذا ما صرت أعمل معكم؟ سأبدأ باعطائكم أسم

عطتنا نصيباً من المال.

نة لله. في سبيل الله لإخوتي. ربي ينصركم. إن شاء الله إن شاء

ا جذلى، مرتاحة الضمير، وانطلقنا للبقية.

تسلل من خلف الضباب، وبين الأغصان المتشابكة... زيدان،

ن أن يطيل التأمل، هتف من أعماقه :

يدان، وهو يجلس بدوره، ثم امر القادة الثلاثة ان يجمعوا جنوده

رض الحال عن المهام التي كُلِّفَت بها كل وحدة!

ذا لا نؤجل ذلك؟ فالجميع منهك القوى.

... لا يفتأ يلقي نظرة على مجاوريه، كأنما يستمد الثقة منهم،
صيب فيهم... شديد السيطرة على أعصابه إلى حد يثير الإعجا
ـد الثورة، وإما أن يخرب قطاعاً كبيراً منها...

ى حزت الرتبة؟
ـما أعدت الانخراط، وقبلت الذهاب إلى الهند الصينية.
خمس سنوات، وهو بهذه الرتبة، لو كان هذا الشاب أوروبياً، لر
أ لماء الأثان أ ... ق ... الماء الأ.

ال... كانت من هذا النوع... هنالك كانت القيادة تحمل إيدي
.. وهنا... آه... القيادة أيضاً من هذا المزيج... قد أنجح كفرد، في
البعض... لكن سيظلون عرضة للانتكاس... المهم في الوقت الر

وعن نتائجها السياسية والعسكرية، ثم يسرّح باقي الجنود، ويبقي معهم معنويات الجنود أثناء العمل وبعده، والخطط القادمة.

ها هو يبحلق، صامتاً شارداً من جديد ...

و ولم يكن في وسعنا إلا أن نبيت متلصقين... كان الفصل خريفاً
نزل بعد الظهر... فأنجبناك... شرارة طائشة، ولعنة صارخة...
بذور كل هؤلاء يا اللاز... بذور كل الحياة... كالبحر... لا إنك ا

مه، وقتل أو جرح من فيه... غنمنا مدفعاً ثقيلاً من عيار 85.. أو
احيتنا... وغنمنا جهازاً لاسلكياً، ثاني جهاز نمتلكه... بالإ
الخفيفة... استشهد منا الأخ بن عبد الله... هذا الشاب ر

الذين ذبحتهم ...

لا تقل ذبحتهم... ذبحناهم. قل ذبحناهم... إننا كلنا هنا ذبحنا،

رنا الأمر... وما أنت إلا منفذ فقط... هل تفهم، ذبحنا... وكان المف

حمد مثالاً في كل حياته، إلا في المرأة... لم يقهر إنسانيته في
فعاشها حتى الأعماق... قبل الجميع تبريراته بدون نقاش...
نه، كان جانب القوة فيه يطغى على غيره... إنني بدأت

يست سوى البرجوازية بعينها، فقدت طعم الحياة في الريف، فعم
ى باريس، تلك هي المسألة، وليس غير...
شير إلى انه يحمل رسالة من المسئول الكبير...

ئول الكبير يريد الاجتماع بك في مسألة هامة.

* * *

تِ الطائرات الصفر للاستكشاف، وبالتالي لم يقع أي حصار أ
دت الفرقة كثيراً عن المظان التي يمكن أن يبادر العدو لمهاج
ن الحصار عادة ما يبدأ مع الفجر، حيث تتسلل الدبابات والعرب

ى اليوم، قبل الآن على الأقل... خطأ فادح، وعمى وغباوة أن
فيمن يخلفه إلا في آخر لحظة... أنانية، ذهنية ملكية فرعونية...
ي أنني أفكر فيهم جميعاً، في لحظة واحدة... كنت أريدهم كلهم

سيد عبد الله، أو لجام فرسه، أو ركاب سرجه... لقد مرَّ لتوه من هنا.
ر السماء جيئة وذهاباً، منذ مئات السنين... سأله أحدهم مرة: لماذ
بد الله ذلك؟ فصمت برهة، ثم أجاب بأنه، دون شك، يبحث عن

إذن يا ترى؟. كان المفروض أن لا أوزع طاقتي في تربية الجميع
وأن أكوّن القادة أولاً... النخبة، الطليعة... كنت أرى أن جيشا
ضخم في يوم من الأيام فجأة... فتكون هذه النواة الأولى متخرجة

حمو وجه أخيه، فلاحظ ما بدا عليه من تغير... زيدان يفرح
حد، لكن حين ينشغل فكره بقضايا خطيرة، يكتسب
. فأي شيء خطير جاء يا تري من القيادة مع هذا الأشقر...؟ ف

ه ألف حق. هذه النواة ينبغي أن ترتوي من الديمقراطية منذ
وم لتحترمها غداً، لتحارب بها كلما اقتضى الأمر، كل «نابليون».

ت النظرات على وجه قائد الوحدة الأولى، وسر زيدان لعدم
ذي اختاره، رغم هذه النظرات الفضولية الثاقبة. وأعلن في قلبه
ا قائد.

ه بالإجماع، وهو أهل لهذه الثقة. إلا أنه سيترك فراغاً كبيراً في
سميته، فقد تتحول المعركة التي نخوضها إلى العمل الفدائي. قد
عمل الحربي، فنجد أنفستا كلنا مسبلين... لا يمكن ترشيح حمو،

لجميع يتسترون عن بعضهم، وينهمكون في كتابة أحد الرق
م، أو لا بينما انهمك زيدان في تأملهم واحداً واحداً...
سيصوت بنعم، لأنه من ناحية مرشح، ومن ناحية أخرى يعل

امل ُ من عوامل انتصارنا... والآن أيها الرفيق «السبتي» يجب أن

«السبتي»، وسر زيدان لذلك، بينما بهت الباقون... إنه يشعر ب

اللاز خلفه، وأمر الكابران رمضان أن يردف مبعوث القيادة، ا
نظر إليه ويردد «أزرق عينيه، لا تحرث لا تسرح عليه» وانحدروا، و
الليل ترتخي رويداً رويداً.

عصر، وقف بعطوش أمام الضابط، بعد أن اصطك عقبا حذائه،
حوق العينين بالزرقة والجفاف والذبول. رفع الضابط إليه عينيه،
ـه لا يحمل شارات رتبته الجديدة، ضغط بقدمه على الزر.

ا بك يا سارجان بعطوش؟ أتقول شيئاً؟

الجندي قد عاد بعلبة صغيرة، حياً ووضعها على المكتب، ثم
الضابط ويتقدم إلى بعطوش.

ذا أيضاً؟

ي أشعر بالجنون.

ف. ذلك مجرّد إرهاق. ابدأ جولتك بتناول كؤوس في خمارة مو

نفح الصقيع ببرودته وجه بعطوش، حتى شعر بالتبلد... إن
لون دخان التبن يلفه... عيناه لا تريان سوى الضباب... قد
ر الضباب... صدره لا يتنفس غير الضباب، الضباب ال

حة أيضاً... عليها اللعنة، فأنا سارجان. السارجان بعطوش.
م نحو الباب، لكن الضباب الرمادي الداكن، سرعان ما غمر كل
هناك جدران، أو منزل، أو باب، أو زينة، أو زواج. التفت إلى اليسا

غرفة المؤونة وخرج، اقتحم غرفة قدّور، ارتمى على خالته حيز
ا بين ذراعيه، احتضنها واقتحم بها غرفة عمه، ألقاها على سري
كالوحش... كانت تئن وتطوقه وتتجاوب معه بشكل فظيع...

ى زيدان شعور بالقلق على اللاز، الذي يغرق في الذهول كلما
يسأله أكثر من مرة هل يشعر بالمرض، إلا أنه أجابه مرة بإدارة رأ
، ومرة بابتسامة ذابلة، ولم يجبه في المرء الثالثة والرابعة، واكتفى ب

ك رمضان بصوت خافت، وابتسم زيدان والتفت إلى اللاز يبحث

نكتة، فوجده واجماً.

لماذا؟

ه، والبسمة تتراقص في الظلمة على شفتيه، بينما راح رمضان
ياضية. في حين انسحب مبعوث القيادة جانباً بعد أن همس :
حوا لي.

اللاز، ثم الأشقر حتى ساعة انطلاقنا.

زيدان، وهو ما يزال يحدق في ساعته، فنهض اللاز محتجاً :

دأ أنا الأول.

والتقدير اللذين أعامله بهما، واللذين ربما يكونان في غير محلهما،
ه للاز...
ي أحب اللاز منذ أمد بعيد، منذ علمت بوجوده... وكثيراً ما تبع

أعصابه، بقشعريرة تلسع كامل بدنه، وبحلقه يجف، وبرأسه يثقل
ساله... تثاءب، وتثاءب... هذه المرة الأولى منذ غادرت القر
إلى الكحول. لقد أفرطت في الشرب طيلة الأشهر الأخير

ف مرة ثانية، وأغلق القارورة ووضعها على صدره بين راحتيه
، بحر زاخر بالخواطر والذكريات.
ؤول الكبير، الشيخ. تلقى الجواب من الخارج على تقريره المتع

أ الاستقلال الوطني ألا يكفي كميثاق؟.

يكفي، ولكن للعمل في جيش، وفي قيادة، لا في حزب يقوم على

وسأظل أكافح، من أجل الاستقلال الوطني.

[...] زيدان، ثم فتح القنينة، وارتشف جرعة ثالثة، تلمظ، وظل لحظ[...]

[...] شيء... حتى تراءت له سوزان في الظلمة، مطلة أحياناً ب[...]

في الحادية والعشرين من عمري، وكانت وجنتاها وأنفها تشبه إلى
تي وأنف مريم ابنة عمي، التي قررت أن أسافر إلى الوطن وأبحث
، حالما أوفر مبلغاً لائقاً، وأجد سكناً... وما أن بدأت عملي في

تثبت بـ ... تورانا. تمت قراءة من الأجنبي ومن أجلها. ...
نني إلى منزلها، لأصبح واحداً من الأسرة، مقابل مبلغ تتقاضاه م
، أحتل غرفة، وأتناول الطعام معهما على نفس المنضدة... وما
ء، حتى تجلسني أمامها، وتشرع في إعادة تلقيني ما قرأت، أو في

نوبية.

س زيدان، وراح ينظر حواليه، ويحاول التأكد من أنه لم يكن يح

كريات، ثم نظر إلى قارورة الكونياك، وشعر بالخجل، وهو يرى

ا إذا كان هناك عدو حقيقي. بينما تمتم اللاز :

حكة البارح لم تعجبني.

ل اللاز خلف الصخرة، في وضع المعركة، وتأمل بندقيته، ثم
ي رفق ولطف، وهوى بشفتيه، يرسم عليها قبلة حارة، وتنهد من
معر بخفقان قوي في قلبه:

إلى تلمّس بندقيته، ثم إلى لثمها، واستغرق في تصحيح وضعه، و
محيّاه، ولم يتفطن إلى رمضان، حين مر قربه، يخبّ منحنياً،
الذي كان بدوره، يطوف بمنظاره، متثبتاً من الطرقات، و

زيدان، ثم سكت لحظاتٍ قبل أن يضيف مستدركاً:

ن هل انتبهت لشيء؟

ي شيء؟

لح زيدان ورمضان، وأهّبا سلاحيهما ولبثا ينتظران. وبعد هنيهة و
ين تحت، وراح يتقدم في حذر وهو يجيل بصره في كل شبرٍ من
عه يقترب أكثر. إنه لنا.

* * *

ر اللاز الذي كان يرقب المشهد من وراء صخرته، وهو على أشد
تطيع أن يفرغ ألف رصاصة دون أن يتمكن العدو منه، فكرّ أ
ه على الزناد، بعد أن تردد كثيراً في اختيار الموضع الذي ينبغي

زيدان إلى رمضان واللاز بيده أن لا شيء خطير، في حين أرسل
شارة الاطمئنان المتفق عليها للدورية التي تولّت بدورها القيام
تقدم موكب الشيخ في شيء من الأبهة وفي كثير من الوقار.

ن نظرة خاطفة على أربعة منهم، وراح يدقق في الخامس... هو
و القبطان سانتوز، الرفيق الأسباني الذي غادر وطنه منذ سنوا
ء لبث أشهراً عدة، يروِّع مواقع السفاحين بمدافع باخرته التي
البحر الأبيض إثر معركة مع الطائرات الألمانية استمرت نصف

عمل يسير على أحسن ما يرام. كمائن، هجومات، اشتباكات
غُنم متواصل، الشعب في يدنا.
أعني ذلك. لكن فيما يتعلق بالخلافات.

زيدان للحظات يكرر الجملة: إلا عندما بينما رفع ... تي
النظر في عنقه. لو لم يزاحمني في انتخابات ١٩٤٧ لفزت... ع
ذه أمور قديمة، لا يمكن أن تتدخل الآن في شؤون الثورة... أ
ي والنزاهة يحتمان ذلك. وتوقف بصره على عنق زيدان مرة

بين الخمسة. أطرق الشيخ قليلاً، ثم قال باللغة الفرنسية وبصو

خذ القرار في شأنكم. بالنسبة لزيدان لا بد من تبرؤه من

كذا إذن؟

القبطان الأسباني، في حين قال زيدان :

ذبح للخونة وللمضادين للثورة، أما نحن... أما نحن فبأي عنوان نُ

نعم. هذا سؤال موضوعي. لقد قررت كل الأحزاب جميعها

وحدّة.

طبعاً الحزب الشيوعي الأسباني، أمر حلّه أو منعه موكول إلى

الشيخ على كلام زيادة واتسع المجال ... الفرنسيين [illegible]

يب، وما ذنب باقي الأحزاب العمالية وباقي الشيوعيين؟

ذا سؤال.

الشيخ، ثم أضاف :

ت المنافسة التي رفض الشيخ المسئول فتحها، عندئذ لكن في حي

رفاقه، وكانت نظرات وإشارات الشيخ عدائية، رغم الحياد المو

طهره في الأول، لذا رأى زيدان أن يتحاشى جعل القضية شخص

دار الشيخ، وانصرف دون أن يترك الفرصة لأحدهم في الرد أو

هر سي مسعود بندقيته في وجوههم، وطلب منهم أن يصطحبوه.

أين؟

* * *

بعطوش أربعة أيام مهولة في الثكنة، كان خلالها بين يقظة ونو
ع وحلم مرعب. لايميّز شيئاً، الليل والنهار، الصباح والمساء، الزم
ن غدير راكد، والأشخاص والأشياء من حوله بقع سوداء جامدة

، ثم يتجرَّع الكأس، ثم يخفي رأسه أو يغمض عينيه، أو يضرب ي
الفراش أخيراً، ليغادره الضابط بعد أن يملأ له كأساً أخرى.
مساء اليوم الرابع، بدأ يحس شيئاً فشيئاً بالوطأة تخف. كانت ا

نطاع هو نفسه أن يلاحظ، هو أنه لم يعد يتألم بنفس الحدة التي
نام الثلاثة التي مرَّت.
هادئاً إلى حد جعله يتصوَّر أنه في حالة نوم، وأنه ليس في حالة يقظ

. إنه بعطوش. هو بعطوش الذي يحمل على كتفيه شارات عريف
أن تأكد من ذلك، راح يتأمل مصادر وقع الأقدام... بدا له
صغاراً كالأطفال أو كالأقزام، ولكن سرعان ما استرجعوا

طاه دون أن يجيب نفسه.

ت القنابل اليدوية في حجم أقراص دواء الصداع لكان في اس

تلع واحدة أو اثنتين منها، وينتظر انفجارها في صدره.

لا تتصوّر أبداً قذف هذه البراميل بقنبلة، أو بثقاب، أو تطاير هذه
ات من جراء انفجار ألغام في قلبها؟
يس ذلك مستحيلاً يا سارجان بعطوش. تصبح على خير.

برهة أضاف :

هر عندي الليلة ويبيت معي... يجب أن يتعوَّد ذلك، لن أجد

يض اللاز.

ترنم قومي لا شعوريا بلحن أغنية برزت في أعقاب الحرب العالمية،
حد مصدرها تمجّد الأمريكيين والأوروبيين وتذم العرب.
نها :

عدة شياطين يهود... حاول يوماً بعض شبان القرية أن يختبروه.

هل كنت معهم؟

رعه يتمم. حتى أنت...

نعم، أعنها بفكرك أنت يا سيدي الشيخ.

عك من أصحابك، فقد فعلوا واجبهم، وأعنها بفكرك أنت.

ستعان الشيخ بفكره، فراح يدرس ويدقّق، ويتشمم أيضا، والشبان

يسترة من هذه المضحكة.

ف آخر :

ه مدة طويلة لم نضحك مثل هذه الليلة.

ير إن شاء الله.

سمعات على اليمين... على اليمين هنا... لا ربما هنا... كل شي
إذا أردتم أن تستضيئوا فعلى اليمين... دائماً اليمين... آه هي ذ
اليمين أخيراً.

إلى اليمين وإلى اليسار

وهي تموت في بطء بطيء... كانت تموت حتى لو كانت هناك

إن دور الشمعة هو الموت... الفناء بالذوبان... دور الشم

... الإضاءة... والموت... يا لها من مضحّية مثالية.

ل ليال قليلة عن السبخة، والملح، والبراعم والوليد، والزهور القا
كرة الثانية والتي يعجب لماذا علقت بذهنه بكل هذه الشدة، هي
بطلة رواية فرانسوا مورياك، وماذا تمثل؟

ي

اءل القبطان الأسباني بدل أن يجد جواباً للسؤال، هل
س بكاءُ تقدميٍّ صادق وهو يستعرض حوادث الرواية وجزئ

:

ز دي كيرو، مأساة على كل حال. اللاز والشعب، شيء واحد.
يده إلى القارورة، أغمض عينيه، ورضع منها جرعة كبيرة، وم
الذي فعل بها مثله، حتى عادت إليه. وعندما لاحظ أنها فرغ

أكوام من علب التبغ من جميع الأصناف... انحنى واختار منـ
استقام، وفكّر، هل يواصل استكشافه أم يعود؟ وبعد لحظة من
ذا النفق لا بد أن يكون يؤدي إلى منفذ ما. لربما إلى الوادي؟

ها ايضا؟

القصة قرأتها منذ سبع عشرة سنة، ولم أبدأ في تحليلها سوى الأن

فاصيلها سرعان ما تزول من الأذهان، أما خاتمتها فإنها هي الو

ج إلى ... أكثر مما ينبغي بالرواية.
... القبطان، بينما راح آخر يتحدث عن «تيريز دي كيرو»:
... تمثّل انعدام الشخصية كما أرى.

الفرنسي المزاج. فالغرض أن تجمع ...

حُكم علينا أن نكون جماعة. نعم جماعة. وموقفنا يجب أن

أما كهيئة... كتنظيم على ما فهمت... فإنني لا أتصور شكله.

قيادة جهوية استثنائية

ب :
رح الرفيق زيدان أميناً عاماً لها.

افقون.

الذ... ... زيدان قبل أن ... كثيراً

هذا الشاب الذي يشعل سيجارة بينهم،

ي، خصره أيضاً يدل على ذلك، أين تلقنها، في الجامعة

الصينية؟ يداه خشنتان، يقين أنه شغّيل ولعله كان في

ة، الموت يلوح من عينيه، ومن حركات إصبعه، إنه يفكر،

... يا اللاز، يوم رأيتك في ...
مادة خام، وستظل كذلك. لن يفهمك أحد بعدي يا اللاز، حـ
نفسك. التحقتَ بها عفوياً، بل هي التي التحقت بك، أدركت
ك. أدركتها عملاً، وأدركتك روحاً، ولما حان أوان اقتحامها لـ

ل القبطان بعطوش عند الباب، مادّاً يده لمصافحته، رافضاً أن يقب
عسكرية، ثم قاده نحو مائدة الطعام قائلا :
ب أن تزول الكلفة بيننا من الآن فصاعداً. أريد أن نكون ص

الساعة الثانية، نرى أن علينا أن نستريح قليلاً. اشرب كأسك.
ب بعطوش، دفعة واحدة، الكأس الرابعة، وشعر ببعض التفتّح
بإشارات يديه لإفهام الضابط بعض ما يريد أن يقول، وتع
الفرنسية التي يبذل جهداً كبيراً في التقاطها وتركيبها والنطق ب

تسنى له أن يحصل على هذه الرتبة؟

د جُرحت في الهند الصينية، تعوّدت شرب القهوة قبل النوم. آ

. خالتي. حيزية. خالتي يا ربي سيدي.

اذا تقول يا بعطوش؟ هل نزعت ثيابك؟ افعل مثلي وهيا بسرعة

ت الجريدة تغطي عينيه، وكانت يده ممدودة إلى زر الإنارة تس

هل يفتح برميلاً ثم يرميه بعود ثقاب، أم يقذفها كلها بقنبلة، وإن
ثر، وليكن ما يكون؟ نعم.

ى الرشاش. إلى الرشاش. يجب أن نقضي عليهم كلهم.
الحين الذي بدأت فيه الدبابة تتحرّك، متجهة نحو الباب، بدأت
ئة تقذف بحممها لتحصد كل من يتحرّك، وارتفعت الص

ادرها أصحابها وانهمكوا في زرع الألغام في قلوبها.

سرع قبل أن تأتي النجدات من المراكز المجاورة.

يعطوش، فسأله أحدهم :

المسبل بعطوش، وأطال النظر إلى صدره وفكر... لو خرج هذ
نة لاستقرب رصاصة من مسدسي هناك. راهنتُ على قتلك بر
. ثم تقدَّم منه، وتناوله بين أحضانه، وغمره بالقبل، والدموع تنه

ج زيدان الورقة من جيبه، واعتدل ليقرأ، غير أن الشيخ رفض ال
دمة والحيثيات والاعتبارات، وحتى صيغة القرار، وطلب ال
موقف زيدان شخصياً.

ما هو؟

ن لا تحضروا اللاز للعملية، ولا تخبروه... اللاز ابني يا سي الش

بالعمل المسلّح إلا منذ خمسة أيام

منقذ سام

ولى لا القيصر أو إمام ... »

ذا يفعلون؟ ماذا يفعلون؟

الكلمات هربت من بين شفتيه، ظلَّ يحدق في الفراغ، قبل أن يغيب عن كل ما حوله، ويسقط على وجهه.
قوه بالكفّار.

ت بطاقتك يا عمي الربيعي.
موظف مكتب المنح، القابع خلف الشباك، الربيعي من سهومه
قال في قلبه، وهو يتناول النقود :

ل وجدت عملا يا حمو؟

غني أن سي بعطوش سيأتي من العاصمة هذا الأسبوع. قرّر أن يـ

تكال عليه وعلى ربي.

